تأملات فى قضايا ومشكلات تاريخ الجزيرة العربية فى عصور ماقبل الإسلام

د. سيد أحمد علي الناصري

من أكبر أخطاء وعيوب المستشرقين الذين كتبوا (بل واحتكروا الوقت طويل الكتابة) في تاريخ الجزيرة العربية قبل الإسلام أنهم متأثرون بشدة بحرفية نصوص التوراة ، خاصة فيما يتصل بتاريخ العرب القدماء ، وللحفاظ على هذه الحرفية يحولون أحيانًا مجرى الأحداث ، ويلوون الحقائق الواضحة ، لكي يتماشى ذلك التفسير مع ما ورد في نصوص التوراة ، وهذا يذكرنا بالمرحلة التي

حقل واسع من المصادر، شملت النواحي الجغرافية واللغوية والأدبية والأثارية؛ وقارن بينها في تناسق دقيق، مستخدمًا كلاً منها في الوقت المناسب للوصول إلى الهدف المنشود، وكأنه قائد عام لجيوش يحرك فرقه المختلفة بمهارة في الوقت المناسب، وبالتنسيق المتكامل مع سائر الفرق الأخرى، لاقتحام موقع معين تنفيذًا لخطة معينة. ولقد كان مونتجمري فطنـًا في التمييز بين المصادر الأساسية، وبين المصادر الهامة وبين العامة؛ وجاء حكمه على بعض القضايا إلى حد ما متزنًا. وهو لا يزال ـ رغم أخطائه ـ وتجاوزاته ـ من المؤلفات الجيدة التي غطت تاريخ الجزيرة العربية القديم، وعلاقاتها مع جيرانها في عصور ما قبل الإسلام.

غير أن ستين عامًا ليست بالعمر القصير في عالم يطلق أقصى طاقاته في مجال البحث والفكر، مستخدمـًا الامكانات الهائلة التي يسرتها النهضة التكنولوجية وثورة المواصلات، فضلاً عن النهضة التي تشهدها الجزيرة العربية ودولها منذ نهاية الحرب العالمية، وحمل جامعاتها الفتية رسالة البحث عن تاريخها العريق، وإزاحة تلال الرمال عنه؛ وبالامكانات الاقتصادية الهائلة جذبت إليها سيلاً من العلماء من كافة أنحاء العالم، وقيامها لأول مرة بالتنقيب عن آثارها بسواعد أبنائها؛ كل هذا غير من ظروف الدراسة ومناخها، فقد كشفت أعمال التنقيب عن مصادر جديدة، وصححت مفاهيم تقليدية عتيقة، ووضعت ملامح جديدة لتاريخ الجزيرة العربية القديم؛ وحققت له استقلاله عن التبعية لتاريخ بني إسرائيل القديم، الذي كان الهدف الأول لكثير من المستشرقين. ومن ثم بدأت إعادة النظر في آراء جيمس مونتجمري.

وأول ما أخذ على جيمس مونتجمري، أنه لم يضع قدمه قط على أرض الجزيرة(٤)، ولا شاهد آثارها، ولا عاش ظروف الحياة فيها، بل درس على الورق وعلى بعد آلاف الأميال، إنما اعتمد على ما كتبه الآخرون، أو نقل إليه سماعًا؛ وفي ضوء تفسير ما ورد في التوراة؛ فأخذ عليه ما سبق أن أخذناه على أول مؤرخ غربي كتب عن الجزيرة العربية دون أن يتجول فيها أو يشد الرحال إليها. ولعل أقدم من تحدث عن العرب من اليونان هو «إسكليوس» (٥٢٥ ـ ٤٥٦ ق.م) ثم جاء من بعده المؤرخ اليوناني المشهور أعني هيرودوت (٤٨٤ ـ ٤٣٠ ق.م)، فجاءت كتاباته مليئة بالمفاهيم الخاطئة، منها على سبيل المثال لا الحصر اعتباره الجزيرة العربية صحراء قاحلة؛ صحيح أن الصحراء تشغل مساحة كبيرة منها، لكن ليست الجزيرة العربية كلها صحراء. فاصطلاح الصحراء من الناحية الجغرافية والبيئية تعني الأرض القاحلة الجرداء الوعرة، التي تندر فيها النباتات والحيوانات ومصادر المياه، وتكاد تخلو من السكان إلا من بعض قبائل البدو الرحل التي تعيش في عالم منعزل؛ ومن ثم طورت ثقافتها وطريقة معيشتها، وطباعها وقوانينها الأخلاقية في ضوء ظروفها البيئية، بينما الواقع غير ذلك؛ فالجزيرة العربية وجود جغرافي، أو شبه قارة كبيرة، يفوق حجم شبه القارة الهندية بكثير، وذات مناطق تضاريسية وبيئية ومناخية متنوعة، ففيها الجبال الخضراء العالية، والوهاد المنبسطة الزراعية، وفيها مناطق ساحلية طويلة ذات موانئ تجارية هامة جذبت إليها التجار من جنسيات وقوميات مختلفة(٥)، وتلاقت فيها حضارات متنوعة، وكان لسكانها نشاطات عديدة. كما كان لوجود حضارات عريقة كبرى تحيط بها وتنفتح عليها، كحضارة بلاد الرافدين في الشمال الشرقي، وحضارات الآراميين والكنعانيين في الشمال، وحضارة المصريين على الجانب الآخر من البحر الأحمر، تأثير كبير عليها، بالإضافة إلى

ذلك فقد ثبت من الدراسات البيئية الحديثة أن الصحراء لم تكن أبدًا عازلاً بين الحضارات، بل كانت معبرًا لها(٦)، فوجود الطرق والمدقات سواء الرأسية أم الأفقية، ودخول الجمل، سفينة الصحراء، تلك الدابة الرائعة التي وهبها الله لسكان الصحارى لتنقل على ظهورها التجارة والحضارة، عبر مناطق نائية في صبر وأناة، وليربط بين أجزاء العالم المسكون، لكن ذلك لا يمنع من الاعتراف بأن الصحراء قد لعبت دورها في تشكيل الثقافة والطباع العربية، أو ما يعرف بالأخلاق الصحراوية : Desert Ethos، ومن ثم فقد كان الرومان على حق عندما ميزوا بين مناطق الجزيرة المختلفة، فقسموها إلى ثلاث مناطق بيئية كبرى، هي : بلاد العرب الصحراوية Arabia Deserta، وبلاد العرب الصخريةArabia Petraea، وبلاد العرب السعيد Arabia Felix؛ بل كان الجغرافيون المسلمون أكثر دقة من الرومان؛ عندما قسموها إلى خمس مناطق بيئية وجغرافية كبرى هي : تهامة أو السهول الساحلية، والحجاز، ونجد، واليمن، واليمامة أو العروض (أي الجنوب الشرقي لشبه الجزيرة). ومن ثم فإن الخلط بين الصحراء وشبه جزيرة العرب، واعتبار الاثنين مترادفين، هو ثمرة الدراسة النظرية البحتة؛ التي وقع فيها مونتجمرى وغيره من المستشرقين، الذين لم يزوروا الجزيرة، ولم يتجولوا بين ربوعها المختلفة.

لقد خلط المستشرقون بين سبأ اليمن في الجنوبSheeba ، وسبأ الحجاز في الشمال (معان مصران) من ناحية؛ وبين سبأ اليمن العربية؛ وسبأ إفريقيا المتزنجة من ناحية أخرى. وتفسير ذلك واضح وهو اعتمادهم في الرأي على ما جاء في التوراة (سفر التكوين ١٠ : ٦) من أن القبائل العربية انخرطت من نسل حام بن نوح، ومن ثم فإن شيبا Sheeba، وسيبا، ودادان، وغيرهم من العرب هم أبناء كوش الأفريقي. ولقد ظل هذا الاعتقاد سائدا لوقت طويل، ولكي

يوفقوا بين ما جاء في التوراة، وبين الواقع التاريخي الذي لا يؤيد ذلك، زعم المستشرقون أن العنصر الأفريقي في عصور ما قبل التاريخ جاء من جنوب الجزيرة العربية عبر القرن الأفريقي؛ وصدق ذلك علماء الأجناس، غير أن (والحق يقال) . . . مونتجمري كان أول من ضرب بمعوله ليهدم ذلك الرأي، موضحا أن توزيع الأجناس على الأرض أضيف إلى التوراة لأسباب سياسية تاريخية. فبعد أن رجع إلى نتائج أعمال التنقيب في كل من أفريقيا وبلاد العرب خرج على التفسير التوراتي، موضحا أنه في عصور ما قبل التاريخ، لم يكن هناك مظاهر اتصال سكاني بين الجزيرة العربية وأفريقيا(٧). وأن الاتصال بين الشعبين لم تتضح معالمه بشكل مؤكد إلا في القرنين الثامن والسابع قبل الميلاد، وربما بدأ بالتسلل العربي عبر مضيق باب المندب إلى أفريقيا منذ القرن العاشر ق. م أي في الوقت الذي حكم سليمان بن داود عليه السلام؛ وبمعنى آخر في الوقت الذي تم فيه الاتصال بين ملكة سبأ وبين سليمان، وحدث التزاوج بينهما وإنجاب الملك سليمان ولدًا هو منليك، الذي أصبح الجد الأول للأحباش، والذي أطلق عليه ابن الحكم، وبقدوم القرن الثامن ق. م كانت الهجرات العربية قد اكتملت واستقرت في أفريقيا، وبذلك تكونت سبأ الأفريقية (التي تكتب وتنطق سيبا Seeba وربما لذلك علاقة باللفظ صوبا)، ومن ثم أصبح هناك شيبا العربية وسيبا الأفريقية.

وبالرغم من أن مونتجمرى نجح في فض الاشتباك العلمي بين السبأتين: العربية الجنوبية، ونظيرتها الأفريقية على الجانب الآخر من البحر الأحمر، إلا أنه استمر يخلط بين سبأ الجنوب، وسبأ الشمال (في شمال غرب الحجاز)، فلقد اعتقد مونتجمرى، كما اعتقد غيره من المستشرقين الذين حاولوا كتابة تاريخ الجزيرة القديم في ضوء التوراة، أن السبئيين وجدوا أول ما وجدوا في منطقة

شمال غرب الحجاز القريبة من فلسطين، ثم هاجروا من هذه المنطقة جنوبًا إلى اليمن، ولعل مبعث هذا الاعتقاد الخاطئ تفسير ما ورد في حوليات سرجون الثاني (٧٢٠ ـ ٧٠٤ ق. م) وحوليات ابنه سنخريب (٧٠٤ ــ ٦٨١ ق. م) حيث ورد في نقوشهما اسم ملكين سبئيين هما ايتيامارا Itiamara وكاريب ايلو (كرب ايل) أخضعهما هذان الملكان الأشوريان، وأجبراهما على دفع جزية سنوية. ولأن المسافة بين أشور وسبأ الجنوب بعيدة جدًّا؛ فقد فسر دارسو النقوش الأشورية أن ايتيامارا وكرب ايل، لابد وأن يكونا ملكين في شمال غرب الحجاز لقربهما من بلاد ما بين النهرين؛ واستخدموا هذا التفسير لدعم مقولة التوراة من أن مملكة سبأ وجدت بالقرب من فلسطين⁽⁸⁾.

وهكذا تكون الاعتقاد بأن الأصل في سبأ كان في الشمال؛ غير أن إعادة النظر في النقوش الأشورية، تبيّن أن سرجون الثاني وابنه سنخريب لم يقولا صراحة ونصًّا بأنهما قاما بغزو سبأ، وإنما جعلاها تذعن لهما، وتقبل دفع الجزية لهما، وهذا ممكن بدون قتال وله سوابق في التاريخ القديم، فقد خضع جنوب الجزيرة ذات مرة لهيمنة ملوك الحيرة بدون قتال أو حروب. ومن ناحية أخرى فإن هذا النقش وما ورد في التوراة يؤكدان أنه كان هناك سبئيتان، واحدة في الجنوب والأخرى في الشمال، وقد تكونت الأخيرة من مجموعة مستوطنات بعث بها الجنوب لحراسة طرق القوافل في الشمال؛ خاصة أن في مثل هذه المنطقة تتشعب طرق القوافل إلى بلاد الرافدين والشام وآسيا الصغرى وفلسطين ومصر.

وكلما ضعفت المملكة الأم في الجنوب، ازدادت مملكة الشمال قوة وازدهارًا، وبمرور الزمن بدأ فارق حضاري يفصل بين السبئيتين، فقد بدأت سبأ الشمال تتعرض لتيارات الحضارة الآرامية والكنعانية والمصرية والهللينستية (وبالذات مع بطالمة الإسكندرية)، ومن ثم حدث تباعد تدريجي بين المملكتين، لم يشمل

فقط الجوانب الحضارية، بل شمل الجوانب اللغوية أيضا، كما شمل هذا التباعد المصالح والعلاقات السياسية. فعندما اشتعل الشرق الأدنى في العصر الهللينستي في حرب ضروس بين السليوقيين في الشام، ومنافسيهم البطالمة في مصر نجد كل واحدة من السبئيتين تقف إلى جانب خصم؛ فبينما وقفت سبأ الشمال مع أصدقائها البطالمة، وقفت سبأ الجنوب مع السليوقيين وحلفائهم الأنباط؛ وربما أرادت سبأ الجنوبية أن تخضع المملكة الشمالية التي استقلت عنها، منتهزة فرصة اندلاع الحرب بين السليوقيين والبطالمة. ولقد كشف عن ذلك النقش الشهير رقم(R.3022; No. 46)(٩) وهو عبارة عن قربان وشكر واعتراف بالجميل بعد النجاة، قدمه كبير المستوطنة المعينية في دادان لآلهة معين وياثيل «لأنها قامت بإنقاذهما مرتين من الخطر، مرة عندما تسببت حرب اندلعت بين الميديين والمصريين في تعريض حياتهما وتجارتهما للخطر خلال إقامتهما في مصر للتجارة والسوريين والبابليين» (في الإسكندرية) (١٠)ومرة أخرى وهما في طريقهما عائدين قدما الشكر لهذه الآلهة «لأنها تولت تحصين قلاع مدينتهم ياثيلYathil » التي لم تكن تبعد كثيرًا عن معين مصران عندما تعرضت لهجوم السبئيين «في حرب الجنوب والشمال» (١١) ويؤكد ورنر كاسكلWerner Caskel أن كل الشواهد، تؤكد أن هذه الحرب هي معركة رفح الشهيرة التي حدثت في شهر حزيران عام ٢١٧ ق. م، عندما قام أنطيوخوس الأكبر بمحاولة لغزو مصر ، لكنه رد على أعقابه خاسرًا على يد بطليموس الرابع فيلوباتور ووزيره الحصيف سوسيبيوس. وكما لاحظ تارن W.W Tarn(١٢) أن النقوش المصرية الهيروغليفية كانت تشير إلى السليوقيين باسم الفرس، وكذلك لاحظ التهايم شتيلAltheim Stiehl(١٣) في كتابه العرب في التاريخ القديم بأن النقوش العربية تشير إلى السليوقيين باسم الميديين الفرس، بل ذكر سترابون

الجغرافي(١٤) أن أنطيوخوس كان يلقب نفسه باسم ملك ميديا (وسوريا)، ومن ثم فلا جدال في أن السبئيين الجنوبيين كانوا في هذه الحرب حلفاء للسلوقيين، وانتهزوا الفرصة لإخضاع الشمال وإعادته إلى حظيرة المملكة السبئية(١٥) الأم.

ولقد أمكن تحديد اسم أحد هذين الكبيرين من خلال مقارنة النقوش اللحيانية الأخرى إذ تبين أن «أبي يدع يطح» حكم ثلاثين عامًا ابتداءً من عام ٢٢٥ ق.م وحتى ١٩٥ ق.م. في أول الأمر حكم بالاشتراك مع آخرين، ثم حكم بمفرده وأخيرًا بالاشتراك مع ولده، وأنه بالفعل عاصر الحرب الكبرى وتحدثت نقوشه الأخرى عن علاقاته التجارية مع مصر والشام، وأنه حفيد سلالة جاءت من الجنوب(١٦).

لقد أصبح الآن ثابتًا أن المملكة السبئية قامت أولاً في الجنوب، وكانت عاصمتها مأرب. وقد أجريت دراسات على الفخار الذي عثر عليه في خرائبها، ثبت منها أن موقع مكانها كان مأهولاً بالسكان منذ القرن التاسع ق.م. وأن بداية استيطانها يرجع إلى القرن الحادي عشر ق.م(١٧)، كما كشف أعمال التنقيب أن حضارة شمال الجزيرة تختلف عن حضارة جنوب الجزيرة، رغم أن الأصل واحد، فقد تلقحت حضارة شمال الجزيرة مع عدة حضارات منها حضارة بلاد الرافدين وحضارة الشام القديم، وحضارة مصر الفرعونية، ومصر الهللينستية، ومع تيار الحضارة الإغريقية والرومانية. كما تعرض سكان الشمال للاختلاط العنصري مع عناصر سكانية مختلفة، فاكتسبوا البشرة البيضاء والقامة الطويلة نسبيًا، والشعر الأسود المسترسل، ولذلك عرفوا بالعرب المستعربة أو بالعدنانيين، بل إن اللغة السامية الشمالية اختلفت عن اللغة السامية الجنوبية رغم أن الاثنين خرجتا من رحم واحد. أما الجنوب فقد بقي محافظًا ـ بقدر الإمكان ـ على عنصره العرقي واللغوي ولم يتعرض للاختلاط إلا

مع العنصر الأفريقي فاكتسب منه البشرة الداكنة والشعر الأجعد، وربما بعض الملامح المتزنجة، ورغم ذلك فقد كانوا يصفون أنفسهم بالعرب العاربة أو القحطانيين. وبمرور الزمن ازدادت الهوة بين الشمال والجنوب. ولعل في سيرة إسماعيل عليه السلام ـ جد العرب العدنانيين ـ ما يرمز إلى ذلك الاختلاط، فهو من أب آرامي وأم مصرية وتزوج من قحطانية. ولعل في قصة عمرو بن لحى ـ صاحب الأصنام ـ ما يرمز إلى الاختلاط الحضاري الذي تعرض له الشمال، عندما ذهب إلى عيون الحمة للاستشفاء وعاد ومعه تمثال هبل، الذي وصفه الرواة بأنه تمثال صغير، مصنوع من حجر العقيق، يمثل شابًا واقفًا في استرخاء، ويكاد الباحثون يجمعون على أن هبل هو اسم محرّف للرب الأفريقي Ho Apollor(١٨)، فإذا حذفنا النهاية المتغيرة في الاسم أصبح «هوأبول» H o Apoll الذي تحول إلى هبل، وهناك أمثلة كثيرة على هذا الامتزاج الحضاري في الشمال نلحظه من خلال دراسة الأسماء العربية الشمالية. أما في الجنوب فقد تأثر بالثقافة الأفريقية عندما دخلت بعض آلهة شرق أفريقيا مثل مدر وبراص إلى مجمع آلهة العرب الجنوبية(١٩).

ولو كان ما يعتقده دارسو تاريخ الجزيرة العربية في ضوء تفسير التوراة صحيحاً من أن السبئيين أصلاً كانوا يستوطنون الشمال، ومنه هاجروا إلى الجنوب، لوجدنا آثارهم الحضارية واللغوية هناك على الأقل لفترة زمنية قبل أن تذوب في حضارة الجنوب، إلا أن الواقع غير ذلك، فالآثار التي عثر عليها في العلا (ديدان) والحجر وتيماء مختلفة تمامًا عن آثار الجنوب. وهنا يفرض سؤال نفسه إلى أي حد امتدت حضارة الجنوب شمالاً و إلى أي حد امتدت حضارة الشمال جنوبًا وعند أي نقطة أو منطقة التقيتا؟؛ وهو سؤال نتركه لعلماء الآثار للإجابة عنه، ومن ثم فإن الرأي العتيق بأن السبئيين جاءوا في الأصل من الشمال

إلى الجنوب دعوى لا يؤيدها في الحقيقة لا الواقع ولا الوثائق، فالهجرات السامية كانت دائمًا من الجنوب إلى الشمال تجاه مصادر المياه الدائمة مثل الأنهار؛ ومن أبسط الأدلة أن حدوث انفجار سد مأرب في القرن الخامس الميلادي الذي تسبب في سيل العرم، وهو الذي أدى إلى حركة هجرة على نطاق واسع من الجنوب إلى الشمال، نتج عنها انتشار قبائل الجنوب في الحجاز وفي وسط الجزيرة مثل الأزد، والأوس، والخزرج، والغساسنة وطيئ ومذحج وهمدان، وكلها نسبت نفسها إلى جد واحد جنوبي هو كهلان؛ ومثل قضاعة وجهينة وكلب التي نسبت نفسها إلى جد واحد جنوبي هو حمير. فأغلب قبائل العرب في الشمال تفاخرت على طول التاريخ بأصلها العريق في الجنوب، وتعلن تفاخرها بشرف الانتساب إلى قبائلها، ولم يحدث أبدًا أن تفاخرت إحدى قبائل الجنوب بشرف الانتساب إلى جد شمالي.

والمنطقة الثالثة التي لها وجود تاريخي متميز هي منطقة الساحل الجنوبي الشرقي وسواحل الخليج العربي والساحل الشرقي للجزيرة، فقد كانت هذه المنطقة من أقدم المناطق التي استوطنها الإنسان في الجزيرة، إذ تمتد آثار الإنسان فيها إلى عصور ما قبل التاريخ(٢٠) ومنذ الألف الثالثة ق. م كانت امتدادًا لحضارات بلاد النهرين خاصة ماجان (التي يظن أنها عمان الحالية) وميلوخا (ربما سواحل الخليج)، وظلت تساهم في رخائها بفضل اتصالات هذه المنطقة بحضارات الهند القديمة(٢١)، وقد ثبت ذلك من العثور على أختام تشبه الأختام التي عثر عليها في الموهانجادارو وحرابا. وظلت هذه المنطقة تحت تأثير حضارات الرافدين حتى سقوط آشور، ثم تحولت للنفوذ الفارسي في مطلع القرن الخامس ق. م أثناء الصراع بين الإمبراطورية الفارسية ودويلات المدن الأفريقية

حيث فتحت امبراطورية الفرس حدودها للتجار خاصة للأيونيين الإغريق من ساحل الأناضول، الذين أصبحوا جزءا من الإمبراطورية الفارسية، بل فتحت أبوابها لجيوش المرتزقة من الإغريق، ومن ثم كانت منطقة الخليج معبرًا لهؤلاء التجار في طريقهم إلى بلاد الفرس أو عائدين منها، فقد شهدت فترة الصراع بين الفرس والإغريق مراحل مد وجزر تخللها تعاون وتحالف وحروب؛ ويدل على ذلك العثور على عدد من النقوش الإغريقية على سواحل الخليج بعضها بكل تأكيد يرجع إلى ما قبل مرحلة الفتح المقدوني.

ومن الجدير بالذكر أن أول من تحدث عن الجزيرة العربية وسكانها هو هيرودوت(٢٢) وذلك ضمن دراساته عن الولايات التابعة للإمبراطورية الفارسية. وبالطبع تدفقت الحضارة الإغريقية على هذه المنطقة بعد الفتح المقدوني، فقد مر الإسكندر بالخليج وهو في حملته على الفرس، كما كان يحلم بجعل الخليج شريانًا حيًا لاقتصاد إمبراطوريته المقدونية، والتي كان يخطط لجعل بابل، التي لا تبعد عن الخليج كثيراً، عاصمة لها؛ ولهذا فإن دراسة منطقة الخليج وساحل الجزيرة الجنوبي الشرقي والشرقي تشكل تخصصًا ووحدة دراسية مستقلة عن اليمن وعن الحجاز. صحيح قد يكون الأصل في حضارة الجنوب مهاجرون جاءوا من بلاد الرافدين بعد سقوط بابل، لكن حبل السرة بين هؤلاء المهاجرين وبلاد النهرين قد انقطع بعد ذلك، فشرعوا يطورون حضارتهم المستقلة، غير أن «برايان دو»(٢٣) تعرف على بعض الجذور البابلية في فن جنوب الجزيرة العربية، كما أن الخبرة العريقة في بناء السدود وحفر قنوات لتوزيع الري هي ثمرة خبرات آلاف السنين، وقد جاء بها المهاجرون من بلاد الرافدين.

ومن أهم الموضوعات التي شغلت اهتمامات دارسي تاريخ الجزيرة القديم من

خلال نصوص التوراة، هو تجارة القوافل بين الجزيرة وفلسطين(٢٤) فقد اعتبرت التوراة جزيرة العرب مصدر المواد الكمالية الفاخرة التي يستخدمها المترفون وأولو النعمة، كالذهب والعطور والبخور والتوابل واللؤلؤ وخشب الصندل والحرير وريش النعام والخيول العربية الأصيلة، وهذا يبين أهمية الجزيرة العربية في اقتصاد بلاد الشام عامة وفلسطين خاصة. فقد كان التجار العرب يحتكرون تسويق البخور واللبان بنوعيه اللادن والمر، وكان ذلك يجلب ثروة كبيرة لهم، ففي سفر الملوك الأول الإصحاح العاشر الذي يروي وقائع زيارة ملكة سبأ لسليمان في «أورشليم» حاملة معها أطيابًا وذهبًا كثيرًا جدًّا وحجارة كريمة «وأن كمية الذهب بلغت مئة وعشرين وزنة ذهب» وأن الطيب والحجارة الكريمة لم يكن لها مثيل من حيث النوع والكم(٢٥)، ويتكرر نفس الكلام في سفر أخبار الأيام الثاني الإصحاح التاسع(٢٦)، ولقد ذكرت التوراة أن سبب الزيارة هو طلب المشورة والحكمة التي اشتهر بها سليمان، كما أنها سمعت بثرائه وبذخه، فأرادت أن تثبت له أنها تفوقه ثراءً وبذخاً، ويرى قان بيك أن الملكة لم تقطع رحلة شاقة تزيد على ٢٤٠٠ كيلو متر عبر المرتفعات والبطاح، والجبال والوهاد، من أجل مناقشة أمور ثقافية وفكرية دفعت مقابلها ثمنًا باهظاً، إنما جاءت في مهمة سياسية واقتصادية(٢٧)، وهي تأمين طرق القوافل في الشمال التي تمر عبرها التجارة القادمة من بلادها في الجنوب، فقد كان طريق القوافل الرأسي الذي يبدأ من عدن في الجنوب، ويسير في حذاء جبال السراة حتى ديدان، والتي عندها يتفرع طريق يتجه إلى تيماء إلى موانىء الخليج وبلاد الرافدين، ويستمر هذا الطريق الذي عرف «بطريق الملك» شمالا حتى الشام، والأناضول، وكانت بعض أجزائه تمر بمدن فلسطين مثل أورشليم، وبيت لحم، والسامرة؛ وتعبر صحراء النقب ووادي عرابة حتى غزة ميناء تصدير

التوابل العربية إلى دول البحر المتوسط بحرًا وإلى مصر برًا . ويرى قان بيك أيضا أن داود ومن بعده ولده سليمان حرصا على السيطرة على جـزء من طريق القوافل الذي يمر بشرق الأردن وجنـوب فلسطين، لجباية الأتاوات والمكـوس، وبذلك تحكما في المنافـذ الرئيسية للتجـارة العربيـة . ولم تحدد التوراة اسم الملكـة السبئية بالاسـم وكذلك فعل القـرآن الكريم، غير أن التراث الشعبي الجنـوبي ذكر أنها كانت تدعى بلقيس، وذكرها التراث الأفريقـي باسم «الماقدة» التي تزوجت من حكيم (أي سليمان) .

ولقد روى القـرآن الكريم في سـورة النمل أخبار هـذه الزيارة، ولم يـركز على الجانب المادي كما فعلـت التوراة، بل ركز على الجانـب الروحي ، بالإضـافة إلى قـدرة الله الذي وهـب سليمان حكما وعلما، وسخر لـه الجن وعلمه لغـة الطير، ويوضح القرآن الكريم أن سليمان هو الـذي سعى إلى ملكة سبأ، وليست ملكة سبأ هي التي سعت إلى سليمان، فكتب لها رسالة يدعوها إلى نبذ عبادة الشمس (اللات) وعبادة خالقها « ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ »، وأن تتنازل الملكة عـن كبريائها واستعـلائها « أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ »(٢٨) ، ولما استفتت ملكة سبأ قومها بعد إنذار سليمان، قبل السبئيون التحدي: « قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ »(٢٩)، فآثرت الملكة أن تتجنب سليمان وجيوشه، وشراء رضـاه بإرسال هدية فاخـرة، لم يذكر القرآن فحواها، « وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ »(٣٠). وبينما نجد سليمان في التوراة يفـرح بهدية الملكة، نجـده في القرآن الكـريم يحتقرهـا قائلاً : « أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ »(٣١) وتجبر الملكة على الذهاب إلى سليمان مسيرة بقوة سحره، وترى بعينها عظمته وتندهش

لقصره الفاره، وينتهي الأمر برضوخ الملكة لسليمان: «قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾»(٣٢).

إننا لا ننكر أهمية التجارة وطرق القوافل لسبأ، إذ لا تستطيع المملكة أن تقوم بدونها Sine qua non لأن اقتصادها يقوم على تجارة البخور والعطارة، وربما سعى داود وسليمان عليهما السلام للسيطرة على طرق القوافل كما حاول بطليموس الثاني(٣٣) أن يفعل فيما بعد، غير أن القرآن الكريم يضيف بعدًا جديدًا وهو الصراع الديني بين وثنية الجنوب ووحدانية الخالق في الشمال، وهو أمر قديم يرجع إلى حكم الفرعون أمنحتب الرابع الملقب بأخناتون (١٣٦٧ - ١٣٥٠ ق. م) ويدافع الأستاذ «بيك» عن رأيه في وجود ارتباط تجاري بين فلسطين القديمة وسبأ مشيرًا إلى عثور جيمس كيلسو James Kelso أثناء تنقيبه عن الآثار في بيت لحم عام ١٩٥٦م على أحد الأختام العربية الجنوبية، كما أشار إلى العثور من قبل على مبخرة عربية جنوبية في تل جمة بالضفة الغربية لنهر الأردن (والتي يسميها قصدًا أو عفوا بالسامرة)، ويحاول أن يتخذ من هذين الشيئين دليلاً على وجود ارتباط تجاري وثيق بين الجزيرة العربية والملكة العربية(٣٤)، غير أن هذين الدليلين وحدهما لا يكفيان لكي نجزم بوجود خلط تجاري دائم، فالمباخر العربية عثر عليها في كل مكان، وهي حالة واحدة لم تتكرر حتى الآن، أما العثور على ختم عربي جنوبي واحد فلا يعني وجود تجارة دائمة، وعلى حد قول المثل الفرنسي: «ظهور عصفور واحد مبكرًا لا يعني أن الربيع قد جاء»، كما أنه لم يعثر حتى الآن (على حد علمي) على أي مواد عبرية خلال التنقيبات التي أجريت في جنوب الجزيرة، ويدرك الأستاذ بيك ذلك فيبرر عدم العثور على المزيد من الأدلة أن الآثار العربية لم تعرف إلا حديثًا (!!) وأنه يتوقع العثور على المزيد منها مستقبلاً (!)(٣٥) ليبرهن على رأيه بأن المملكة

العبرية سيطرت على منافذ التجارة العربية في الشمال، وإنني لا أدري كيف نقبل تبريرًا كهذا رغم أن البعثات الأوربية جمعت آثار العرب الجنوبيين منذ أواخر القرن الثامن عشر وطوال القرن التاسع عشر، بدءًا ببعثة كارستن نيبوهر الدانمركي، وتمكن علماء الساميات من فك رموز الخط المسند وحل نصوص النقوش العربية؟؛ ويقول إنه حتى تاريخ إلقاء محاضراته (١٩٣٠) لم يكتشف في جنوب الجزيرة سوى بناء معماري واحد هو معبد المقة الواقع إلى الشمال من صنعاء والذي أزاح الرمال عنه راتجنز Rathjens وهرمان فون وايزمان Herman von Wissmann عام ١٩٢٨(٣٦)، مستبعدًا المكتشفات الأخرى بأنها عديمة الفائدة العلمية ولا تساعد على الجزم برأي ثابت، وهو يعني بالطبع آلاف النقوش العربية الجنوبية التي هي باعتراف الجميع مفتاح السر إلى قلب الحضارة، متناسيًا أن حل رموز الكتابة الهيروغليفية كان بداية لعلم الدراسات المصرية.

والذي لا شك فيه أنه منذ الحرب العالمية الثانية أو قبلها بقليل حدثت ثورة في المعلومات فيما يختص بتاريخ وآثار الجزيرة العربية قبل الإسلام. فقد شهدت أقاليم الجزيرة نشاطا محموما، قامت به بعثات أغلبها أوربية وقليل منها عربية وتركزت أعمال التنقيب في ثلاث مناطق من الجزيرة هي: اليمن بشطريه، والحجاز، ومنطقة الخليج. ففي اليمن قام رتشارد ليبارون بوين Richard Le Baron Bowen بعمل مسح أثري لإقليم بيحان نشر نتائجه عام ١٩٥٨(٣٧) وفي مطلع الخمسينيات من هذا القرن قام الأستاذ الدكتور أحمد فخري(٣٨) يساعده زميله عالم الساميات المصري الكبير يحيى خليل نامي بعمل مسح أثري شامل لآثار ونقوش اليمن، ونشر الدكتور يحيى نامي نقوشه في حوليات كلية

الآداب جامعة القاهرة(٣٩)، كما قام كل من جوش ڤان بييك Gus Van Beek وج هـ. كول G.H. Cole وألبرت جام A.Jamme بعملية مسح أثـري شامل لمنطقة حضرموت في اليمن الجنوبي نشر في عام ١٩٦٣(٤٠) كما قام ف. و. ألبرايت F.W. Albright بالتنقيب في قتبان نشر نتائجها عام ١٩٥٠ (٤١)، ثم اشترك مع رتشارد ليبارون بوين بالتنقيب في جنوب الجزيرة ونشرا نتائج أعمالهما عام ١٩٥٨(٤٢)، كما قامت عالمة الآثار الألمانية جرترود كاتون طومسون Gertrude Caton Thompson مع فريق من علماء الآثار التابعين لمؤسسة دراسة الإنسانFoundation for study of Man بالتنقيب في تمنع عاصمة قتبان القديمة بالقرب من باب المندب (كحلان الحالية)، وكذلك في حجر بن حميد في وادي بيحان، وفي معبد المقة (رب القمر) في مأرب عاصمة سبأ (والمعروف باسم محرم بلقيس)، وكذلك في ظفار، وقد نشرت المؤسسة نتائج عمليات التنقيب في الجريدة في مجلد فاخر ظهر عام ١٩٤٤ ، (٤٣)، ثم والت نشر أعمال التنقيب فلغ حتى الآن ستة مجلدات كاملة(٤٤)، وفي عام ١٩٦٢ نشر «جام» نقوش معبد محرم بلقيس السبئية(٤٥) . وفي عام ١٩٦٥ قام راي كليفلاند Clevland بالتنقيب في منطقتي طفار وعمان وفي جنوب الجزيرة(٤٦). وقام جون ڤان بييك بنشر نتائج حفائره في حجر بن حميد عام ١٩٦٩ (٤٧) وقام ريكمانRyckmans .J بنشر القوانين الملكية في معين وسبأ عام ١٩٥١(٤٨) وقام بيرتا سيجال Berta Siégal عام ١٩٥٨ بنشر نتائج حفائرها في تمنع وجنوب الجزيرة(٤٩) . وقام م. أ. سالمون M.E.Salmon بعمل مسح شامل للأدوات البرونزية في حجر بن حميد عام ١٩٦٩(٥٠) كما نشر برايان Brian Doweنتائج دراساته للجنوب اليمني، صدر عام ١٩٧٢ . (٥١)

أما في الحجاز فقد حظيت منطقة حائل باهتمام خاص ، فقد قام الأمريكيان وليام ريد **William L.Reed** وف . ف وينيت **F.V. Winnett**بمسح المنطقة الشمالية الغربية أثريًا وطوبوغرافيًا عام ١٩٦٢(٥٢) ، ثم نشرا نتائج مسحهما لمنطقة حائل عام ١٩٦٧ بالاشتراك مع بيتربار **Peter Parr** وجون دايتون**John Dayton** (٥٣) وقامت أناتي **E.Anati**(٥٤) بدراسة الصخور في الهضبة الوسطى نشرتها عام ١٩٦٨ وقام ج . ب . ماندافيل بدراسة عن شمال الجزيرة صدرت عام١٩٦٣(٥٥) ، وفي وادى الدواسر وبالتحديد في قرية الفاو عند حدود الربع الخالي قام الدكتور عبد الرحمن الأنصاري بالتنقيب عدة سنوات . نشر نتائجها في مجلد صدر في الرياض عام ١٩٨٢(٥٦) ونحن ننتظر بفارغ الصبر نتائج هذه الحفائر متمنين أن تنشر نشرًا علميًا دقيقاً . كما قامت إدارة الآثار السعودية بإشراف الدكتور عبد الله حسن مصري بعمل مسح شامل للمناطق الأثرية في الحجاز شارك فيه كل من بيتربار **P. Parr** وآدامز **R.A.Adams** وزارينز **J.Zarins** ، وآخرون وتوالى نشر نتائجها تباعًا في حوليتها الأطلال .

أما في منطقة الخليج العربي ، فقد نشطت أعمال التنقيب مع تعاظم أهميتها البحرية والبترولية ، ولقد لفتت جزيرة البحرين (دلمون القديمة) أنظار الأثريين كهمزة وصل بين حضارات الهند والصين من ناحية وحضارة الرافدين من ناحية أخرى ؛ وذلك حتى قبل الحرب العالمية ، فقد كانت حكومة الهند البريطانية تشرف وتشجع علماء الآثار على التنقيب في البحرين ، نذكر منهم إرنست ماكاي Ernest Mackay ، وهاردنج ، Harding وفلنورز بترى عالم المصريات الشهير وذلك عام ١٩٢٩(٥٧) ثم قام كورنولB.Cornwall بالتنقيب في البحرين ما بين ١٩٤٠ ـ ١٩٤١(٥٨) وفي عام ١٩٥٤ قام جلوب P.Globbبدراسة بداية

الاستيطان في الجزيرة والمدينة القديمة خاصة معبد بربر(٥٩)، كما قامت البعثة الدانماركية اشراف هـ. كابل H.Kapel بالتنقيب ما بين ١٩٥٣ حتى ١٩٦٠ في جزيرة فيلكا بالكويت خاصة موقعي تل سعد وسعيد(٦٠)، ثم انتقلت إلى البحرين حيث أجرت عددًا من التنقيبات في مواقع المستوطنات والمدافن، ثم انتقلت إلى قطر حيث أصدرت مسحًا أثريًّا شاملاً لدولة قطر صدر عام ١٩٦٧(٦١). وفي عام ١٩٧٠ أعاد مورتنسن الدانمركي Mortensen دراسة معبد بربر في البحرين نشرها عام ١٩٧٠(٦٢) ومن الذين نقبوا حديثًا في البحرين ديورنج كاسبرز During Caspers(٦٣) وموجال M.R. Mugal(٦٤) ولقد طلبت حكومة البحرين من الهيئات الدولية والعربية التنقيب في منطقة سار الجسر التي كان يزمع إقامة جسر الملك فهد الذي يربط بين المملكة العربية السعودية والبحرين فتأسست بعثة مشتركة من مختصين يمثلون العراق وسوريا والأردن والكويت وقد مثل البحرين فيها معاوية إبراهيم الذي نشر نتائج هذه البعثة المشتركة(٦٥).

أما ساحل المملكة العربية السعودية الشرقي أو بمعنى آخر ساحل الجزيرة العربية الشرقي فهو أقدم المناطق الذي سكنت في الجزيرة، ولهذا فقد كان مجالاً خصبًا للمهتمين بعصور ما قبل التاريخ، وهو الموضوع الذي حظي باهتمام عبد الله حسن مصري سواء في شرق المملكة العربية أوفي المنطقة الشمالية الشرقية(٦٦) وهو نفس الاهتمام الذي شاركه فيه ماكلور(٦٧) وكابل الدانماركي الذي درس منطقة قطر في عصور ما قبل التاريخ (٦٧) والحقيقة أنه لا يمكن فصل هذه المنطقة عن سواحل الخليج سواء أثريًّا أم تاريخيًّا ولا حتى في مجال التنقيب على الآثار، ولا تزال منطقة سلطنة عمان في حاجة إلى المزيد من أعمال التنقيب

لتواكب حركة الاهتمام العام بتاريخ الجزيرة العربية قبل الإسلام .

وبالرغم من هذا النشاط الأثري الهائل ، وما تلاه من حركة نشر لنتائج أعمال التنقيب ، فلا يزال تاريخ الجزيرة العربية أسيرًا للفكر التوراتي ، إذ نجد الحقائق تلوى لكي تتماشى مع ماورد في التوراة حول الجزيرة العربية ، بينما كان من المفروض أن يستفيد مفسرو التوراة من نتائج هذه المكتشفات الأثرية لتفسير التوراة وأسرارها . وأن يكون التفسير خاضعًا للمصادر الأثرية والتاريخية باعتبارها حقائق ثابتة ، بدلاً من لوي نتائجها لتخضع لنصوص التوراة حسب هوى مفسريها ، ناهيك عن إهمال الأوربيين لمصدر المصادر ، وهو القرآن الكريم بآياته الواضحة الحاسمة ، ولا يوجد ولن يوجد مصدر يعرف عن تاريخ العرب القديم وأحوالهم يداني ما ورد في آيات القرآن الكريم عنهم ، كما يتجاهل الأوربيون المصادر العربية الإسلامية ، بل ويتعمدون التعتيم على نشاط العلماء العرب . وهذه إحدى القضايا المقلقة للمهتمين بدراسة تاريخ الجزيرة ؛ ومن ثم يتوجب علينا العمل بجد لتحرير تاريخ الجزيرة من التبعية لنصوص التوراة ، وحتى لا يصبح علمًا موقوفًا على الأوربيين وحدهم .

غير أنه من العدل أن نقول إن هذا النشاط المحموم ، تلته حركة اهتمام علمي بالجزيرة ، فقد أقامت جامعة الملك سعود ثلاث ندوات عن مصادر تاريخ الجزيرة خصصت الندوة الثانية التي عقدت في إبريل (نيسان) ١٩٧٩/ ١٣٩٩ هـ لتاريخ الجزيرة العربية قبل الإسلام ، وشارك فيها كبار الباحثين من الشرق والغرب ، ونشرت أبحاثها في مجلد أنيق صدر عام ١٩٨٤/ ١٤٠٤هـ ، كما توالى نشر العديد من النقوش والمخربشاتgraffiti التي وجدت خلال أعمال التنقيب السالفة الذكر ، والتي شملت أسماء أعلامها ، ونقوشًا على المقابر ، وتبين اسم المتوفى وعشيرته وقبيلته ، ونقوشًا خاصة بتقديم القرابين وإقامة المعابد والمرافق

العامة، والقليل منها كان نقوشًا تاريخية تختص بأبحاث سياسية ساعدت في إعادة بناء تصورنا عن ممالك الجزيرة في العصور القديمة، وحسمت مشاكل وقضايا كثيرة كانت تواجه الباحثين حول تحديد عصور الممالك العربية الجنوبية ومعرفة أسماء ملوكها، وسني جلوسهم على العرش. وبعض القوانين والشرائع الخاصة بالضرائب والعشور، ومعرفة المزيد من ديانات العرب قبل الإسلام، وتطور الكتابة العربية الجنوبية من خلال متابعة المحتوى والخطوط. كل هذا ساعد على وضع تخطيط جديد لتاريخ العرب القديم يختلف إلى حد ما مع ما كتب عنهم قبل الحرب العالمية الثانية(٦٩)، بل إن نشر المزيد من المصادر قد يجعلنا في المستقبل نعيد النظر مرات ومرات فيما كتب حتى تستقر خطوته، وتثبت معالمه. وليس هذا بغريب فلقد مر تاريخ الرافدين وتاريخ مصر بنفس المرحلة ونفس الظروف، ولا يزال عرضة للتغير، إذا ما ظهرت وثائق جديدة فالتاريخ لا يستقر على حال واحد، لأن علمه الحقيقي عند ربي.

ومن أهم نتائج هذا التقدم الكبير في البحث حسم الجدل الذي كان يدور حول تحديد بداية قيام أقدم الممالك العربية في الجنوب، فقد كان هناك رأي يؤكد أن دولة معين وقتبان تسبقان في قيامهما قيام دولة سبأ، ويحدد تاريخًا وتقديرًا لقيام الدولة المعينية والقتبانية وهو خلال الألف الثاني ق.م، أما أنصار التاريخ المتأخر فيؤكدون أن سبأ هي التي سبقت كلاً من معين وقتبان، ويحددون عصر المكارب في سبأ إلى مطلع القرن الثامن ق.م، بينما يحددون نهاية القرن الثامن ومطلع القرن السابع ق.م كتاريخ لقيام دولة معين وقتبان(٧٠) ولقد كان الرأي الأول هو السائد حتى وضح وينيت Winnettعام ١٩٣٩ دهشته من أن أغلب قوائم النقوش المتاحة والتي تشتمل على أسماء ملوك معين وسني حكمهم، تعود إلى الفترة ما بين ٤٠٠ ــ ١٠٠ ق.م، ثم رصد التأثير المعيني على النقوش

اللحيانية المتأخرة في شمال غرب الجزيرة، أو بمعنى آخر في منطقة الحجاز،(٧١) ، و يقول قان بيك أن الضربة القاضية(٧٢) التي قوضت الرأي الأول جاءت على إثر نشر نتائج أعمال التنقيب التي قامت بها مؤسسة الإنسان الأمريكية في موقع «تمنع» عاصمة قتبان عام ١٩٥٠ ، حيث عثر على زوجين من التماثيل البرونزية تمثلان أسدين يمتطيهما طفلان، ويحملان ملامح الفن الهللينستي، الذي يرجع للقرن الأول ق . م ، وعلى قاعدتيهما نقش يسجل اسمين لاثنين من العمال من بين الذين اشتركوا في ترميم البناء الذي زين بالتماثيل المذكورة، كما وجدت نقوش أخرى على حائط البناء تحمل نفس الاسمين للعاملين المذكورين، ويذكران فيه أنهما قاما بهذا العمل في عصر حكم ملك قتبان الشهير «شهر يجول يهرجب»(٧٣) وبناء عليه فقد حدد تاريخ حكم هذا الملك القتباني بأنه في العصر الهللينستي، وليس في القرن الثامن ق . م كما كان يظن أنصار الرأي الأول؛ وتحديد عام ١٥٠ ق . م ، يتطابق مع ما ورد في استكمال الدكتور فؤاد حسنين لكتاب التاريخ العربي القديم(٧٤) ، ومهما يكن من أمر فقد كان ذلك دفعة قوية إلى الأمام لإزاحة الغموض حول عصور حضارات الجزيرة ويؤكد ازدهار الممالك العربية في العصر الهللينستي كثرة وجود التماثيل الهللينستية في جنوب الجزيرة بشكل ملحوظ ، بل وفي نتائج كشوفات وتنقيبات الأستاذ الدكتور عبد الرحمن الأنصاري في موقع الفاو(٧٥) .

ولقد كشفت أعمال التنقيب عن الحجم الهائل الذي شغلته شبه الجزيرة منذ القرن الثامن ق . م وحتى تهدم سد مأرب وحدوث سيل العرم، وبينت أن هناك أربع مناطق حضارية متميزة وواضحة قامت في ربوع الجزيرة، هي : جنوب الجزيرة أو بلاد العرب السعيدة، وشمال الجزيرة أو الحجاز، وسواحل الخليج العربي، والساحل الشرقي للجزيرة الذي يشمل مسقط وعمان، غير أن أكثرها

بريقًا وازدهارًا هي بلاد العرب السعيدة، التي كانت نواتها تلك البقعة المثلثة الواقعة على حافة الصحراء ويحفها جبال تهامة من الغرب، وجبال اليمن الجنوبي وهضبتها الصحراوية في الجنوب، ورمال الربع الخالي الذي يفصل بينها وبين هضبة نجد في الشمال. ولقد كشفت نتائج التنقيب أن الحضارة في هذه البقعة لم تكن نتيجة عصور طويلة من المعاناة والتطور البطيء على نحو ما كانت بلاد النهرين أو مصر، بل انبثقت فجأة كما خرجت «أثينا» ربة الحكمة كاملة النمو من عقل أبيها زيوس على نحو ما تروي أساطير اليونان، ولهذا يميل المؤرخون إلى الاعتقاد بأن هذه الحضارة ولدت نتيجة قدوم جماعات مستوطنة ومهاجرة أغلب الظن أنها جاءت من بلاد الرافدين في شكل موجات متتالية منذ القرن الخامس عشر قبل الميلاد حتى اكتمل استيطانها في القرن الثاني عشر ق. م (٧٦)، والذي يؤكد ذلك، القرابة مع حضارة الرافدين ليس في مجال اللغة فحسب، بل في أصول العقيدة ورموزها، بالإضافة إلى أن الخبرة العربية في مجال بناء السدود وإقامة شبكات الري والتي لا تتأتى إلا لسكان جنوب الرافدين، والتي هي نتاج خبرات وتجارب آلاف السنين، ولا يمكن أن تكون نتيجة عبقرية خارقة مفاجئة.

فمنذ قيامها تميزت الحضارة العربية الجنوبية بوجود نظام للري لا مثيل له وفي شبكة معقدة من القنوات الفرعية توزع المياه بدقة متناهية على مساحة شاسعة من الأرض الزراعية، وسدود من الأحجار لحجز مياه السيول، أو في مصايد المياه الممثلة في الفجوات العميقة التي نتجت عن الأخاديد والزلازل وفي وجود الآبار المصدر البديل لمياه الأمطار والسيول والمثل الكامل لهذا النظام المعقد هو ما كشف عنه في وادي بيحان بالقرب من حجر بن حميد(٧٧)، وهناك أيضًا شبكة أخرى للري كشف عنها في وادي زنة بالقرب من مأرب في اليمن(٧٨).

ولقد تميزت هذه الحضارة بقيام القرى والمدن التي لا تختلف كثيرًا عن قرى ومدن الرافدين ، أو الهلال الخصيب ، أو وادي النيل ، وقد تراوحت أحجام هذه التجمعات السكانية من نجوع صغيرة لا تتعدى مساحتها الهكتار الواحد (حوالي اثني عشر فدانًا مصريًّا) إلى مدن عامرة تشغل مساحة تصل إلى ستين هكتارًا (حوالي ٤٥٠ فدانًا مصريًّا) ، كلها تحمل نفس التخطيط العمراني المنظم الذي يشبه مدن العراق والشام ، أو البناء العشوائي القروي الذي لا تخضع مبانيه لتخطيط ثابت . ولقد كانت المباني الخاصة والعامة تبنى من الآجر الطيني أو الحجر. وفيما بعد حقق فن البناء عندهم انجازات رائعة ، تعتبر علامات مميزة في تاريخ العمارة في الشرق الأدنى القديم ، خاصة تلك التجاويف التي عملت في الحوائط (أو ما يعرف بالدواليب الحائطية) التي تزينها النمنمات الزخرفية البارزة مثل «الدانتيل» وفتحات التهوية التي تشبه مصايد الهواء في بيوت قرى الفيوم القديمة ، والنوافذ ذات المشربيات والتي تقابلها في المباني الكبيرة مثل معبد المقه في مأرب والشهير بمحرم بلقيس(٧٩) ، كما نجد لها نماذج مصغرة في البيوت ، وكذا في أنواع المباخر المختلفة الأشكال . وكما لاحظ الأستاذ «براين دو»(٨٠) «فان بيك»(٨١) فإن نظام البناء يتخذ أسلوبين ، أسلوب البناء الطيني الذي ينفذ إلى حد ما طبقا لرسم معين والذي تزخرف سطحه عرائس أو فتحات منقورة وهو أسلوب عريق الجذر في المنطقة ، بل له بقايا في أسلوب البناء القومي في البيوت والقصور القديمة في مدن الجزيرة حتى الآن (قارن البيوت وقصور الرياض القديمة) والآخر البناء الحجري الذي يتكون من أحجار منحوتة ، تكسوها طبقة مسطحة أو محدبة . أما تخطيط البناء فيبدو كشبه المنحرف إذا ما نظرنا إليه من علو شاهق .

وفي ضوء آلاف النقوش التي عثر عليها يمكننا القول أن الكتابة والقراءة كانت شائعة بين السكان الذين كانوا يتحدثون لغة سامية عربية جنوبية، لها أبجدية جميلة الأشكال تستند حروفها بعضها إلى بعض ومن ثم عرفت بالخط المسند. وكانت تتكون من تسعة وعشرين حرفا صامتا. وكانت الموضوعات التي تغطيها النقوش متنوعة، وكانت تختلف في أطوالها حسب أهميتها. والنقوش الرسمية كانت تنقش بدقة وعناية على واجهات المباني العامة، وعلى الأحجار سواء من الصوان أم الحجر الجيري أم المرمر، وتنقش على صفائح النحاس أو تصب في قوالب من البرونز أو ترسم بخطوط غائرة على الأواني الفخارية أو عظام الحيوانات العريضة. كما أن العثور على أعداد كبيرة من المخربشات (graffiti) العفوية التي خطها عامة الناس سواء من رجال القوافل العابرة، أو من الرعاة أو غيرهم، يوضح أن التعليم كان منتشرا بين الناس، ولم تكن القراءة حكرا على طبقة الكهنة وحدهم دون غيرهم، كما هو الحال في العراق القديم.

أما في مجال العقيدة، فنجد ديانة وثنية ثابتة الأركان، متأثرة بعقائد بلاد النهرين، ويشهد على ذلك ظهور شجرة الحياة أو «سدرة المنتهى» في الرسومات الدينية؛ وبعكس العرب الشماليين فضل الجنوبيون عبادة الآلهة الفلكية، التي لا تصور ولا يصنع لها أصنام: مثل الشمس، والقمر، وكوكب الزهرة، وبعكس الآلهة الإغريقية والمصرية والعراقية القديمة نجدهم يحولون الشمس (اللات) إلى أنثى (بينما في ديانات الشعوب سابقة الذكر نجدها ذكرًا) بينما يحولون القمر إلى زوج ذكر لها (ود أو المقة)، على طريقة التثليث المصرية يجعلون لهذين الزوجين ولدًا هو عشتر (كوكب الزهرة). وربما لأن الشمس عند الشعوب الشمالية كانت ترتبط بذوبان الجليد، وامتلاء الأنهار، أما في مصر فإنها كانت

مبعث الضوء والحرارة اللازمين لنضوج النبات، بينما هي في جنوب الجزيرة محرقة وقاتلة، أما القمر فهو هادئ وجميل تسير القوافل ليلاً في ضوئه، ويحسب التقويم من خلاله ولهذا، جعلوه الرب الأكبر، أمّا كوكب الزهرة فهو الكوكب الذي يسبق ظهور الشمس ويتلو مغيب القمر وتستخدمه القوافل لتحديد اتجاهها، وصدق الله العظيم حين يقول«وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ»(٨٢)، ولهذا فإن كافة حضارات جنوب الجزيرة أعطت القمر منزلة أعلى من الشمس، وإن اختلفت في تسميته، وبنيت له المعابد في كل مكان، في الدساكر، والقرى، والمدن. أما عن تخطيط المعبد العربي القديم فهو عادة ساحة أو حرمًا منفتحًا تحيط به صفوف الأعمدة (Peristyle) ويقوم المحراب عند أحد جوانبه. وفي كل معبد توجد بئر أو مصدر مائي بهدف الوضوء والتطهر، وفي داخل هذا الحرم عثر على النذور، والقرابين، سواء في شكل مصورات أم تماثيل لإدخال السرور والبهجة على الآلهة، أو في شكل لوحات من النحاس أو المرمر نقشت عليها عبارات الشكر والعرفان لنعمة حدثت، أو تجارة كسبت، أو نصر تحقق، أو من أجل رجاء طلب أو أمنية(٨٣).

ولقد حقق الفنان العربي قدرًا من المهارة لا يقل عن مثيله في العراق أو الشام أو مصر أو بلاد اليونان خاصة في فن النحت والتصوير، وصناعة الأثاث المنزلي. فقد استغل الفنان تنوع الصخور سواء من حجر الكلس أم المرمر أم الحجر الجيري أم الحجر الصابوني أم حجر الاردواز أو الشبه (البروسيت Brucite) لكي ينحت أشكالاً بمهارة تجمع بين الجمال والواقعية، وفي صناعة الصناديق والخزانات الحجرية، ذات الجوانب المزخرفة بالأفاريز المربعة الغائرة التي تشبه الأفاريز التي تزخرف المباني الكبرى، والتي سبق الإشارة إليها، والتي فاق فيها العربي القديم فناني ونحاتي الشعوب الأخرى، وحتى ذلك الفن

الروماني لم يصل إلى درجتها إلا بعد جهد جهيد، وفي مرحلة تالية. أما في مجال المعادن فقد حقق العربي الجنوبي قدرًا فائقا من الإبداع والتفوق، فاستخدم الحديد والنحاس والبرونز، والفضة والذهب في عمل مشغولات بديعة، وقد ورث الصائغ اليهودي حرفة الصياغة عن العربي بعد أن تدهورت حضارته، فقبيل الإسلام نقل اليهود المهاجرون هذا الفن معهم إلى مدن الحجاز، واحتكروه لأنفسهم وأنشأو أسواقًا للصاغة، كما هو معروف لنا من المصادر عن الحياة في يثرب وغيرها من المدن العربية قبل الإسلام. وكذلك يتضح من دراسة المسبوكات البرونزية المتعددة أن عرب الجنوب عرفوا أسلوب صب التماثيل المجوفة أو المفرغة وذلك باستخدام القالب والشمع المصهور، كما عرفوا طريقة تطعيم الأواني بالنحاس عن طريق ترصيعها بأسلاك رفيعة لعمل زخارف وأشكال. أما عن الفخار فبالرغم من كثرة وجوده إلا أن ما صنعوه منه لم يصل إلى الجودة والدرجة التي وصل إليها الإغريق والرومان والأنباط. وقد خبر هؤلاء الأخيرون صناعة الفخار رقيق الجدران eggshell (٨٤) غير أن عرب الجنوب حاولوا تقليد هذا الفخار الجيد المستورد، وكثرة وجود هذه الأنواع من الفخار تؤكد وجود اتصال فني واسع مع شعوب الهلال الخصيب وشعوب البحر المتوسط سواء عن طريق التجارة أم هجرة الفنانين والحرفيين، ويؤكد وجود تقنيات وأنماط زخرفية واحدة انتشرت عبر منطقة شاسعة امتدت من وادي النيل غربًا إلى الفرات وبلاد الفرس شرقًا؛ ومن القوقاز شمالاً إلى اليمن جنوبًا(٨٥).

وعلى طريقة المدن الموكينية الإغريقية، كانت المدن في جنوب الجزيرة العربية تقام فوق التلال والجبال التي تشرف على الوديان الزراعية أو على طرق القوافل التجارية، وقلما وجدت المدن المحاطة بالأسوار الدفاعية(٨٦) اللهم إلا في المدن

التي قامت حول الآبار في السهول والواحات. ومن خلال دراسة نتائج التنقيبات في قرية الفاو(٨٧) نعرف أن المدينة العربية القديمة كانت تضم حيًّا للتجار ودارًا لاستقبال المسافرين منهم، واصطبلات لمبيت الجمال واستبدال تلك التي أصابها الإرهاق أو العجز عن السير، وتشمل المدينة أيضا سوقا تجارية تصطف على جانبيها الحوانيت والمخازن لخزن البضائع والمواد التي تجلبها القوافل العابرة. ولأن اهتمام السكان كان منصبًا في المقام الأول على التجارة، فلم تكن دويلات الجنوب دولاً عدوانية، بل كانت تحرص على السلام باستثناء الصراعات القبلية على الحكم، وقلما تورطت في الحروب التي كانت تجري على الساحة الدولية مثلما حدث في معركة رفح التي سبق الإشارة إليها، ومن ثم فإن النقوش التي كانت تتحدث عن الحروب والمعارك قليلة ومحدودة، لأنهم مثل أشقائهم الفينيقيين في الشمال وضعوا كل همهم وخبراتهم في مجال التجارة والمال، وقد وضح ذلك في مقاومتهم المحدودة لحملة ايليوس جاللوس على مأرب عام ٢٤ ق. م.

كانت الدعامة الأولى التي قام عليها اقتصاد دويلات الجنوب العربي هي إنتاج وتسويق وتوزيع اللبان والبخور والمر، فقد كان الطلب على هذه السلع شديدًا، فقد كانت المعابد الوثنية في مصر وبلاد الهلال الخصيب تستخدمه بكثرة في معابدها، بل ولا يزال البخور يلعب دورًا في معابد اليهود الشرقيين، وفي منازل الأفراد حتى يومنا هذا، كما أن النقوش المصرية مثلاً تحدثت عن بلاد البخور بأنها أرض مقدسة، فمنها يأتي غذاء الآلهة، بل إن المر استخدم في صناعة العقاقير وتحنيط الموتى، وترتبط الأخيرة بالدين المصري القديم. وبسبب شدة الطلب على البخور خلال الألف الأولى ق. م جنت الدويلات العربية الجنوبية ثروات هائلة من تجارتها، ووصلت قمة هذا الثراء في أواخر القرن الأول

ق . م ومنتصف القرن الأول بعد الميلاد أي قبيل وبعد قيام الإمبراطورية الرومانية . ولقد وصف بلينيوس الأكبر عرب الجنوب بقوله «أغنى عنصر بشري في الكون»(٨٨) ، ويتضح من قائمة السلع المصدرة إلى بلاد العرب أنهم كانوا مكتفين ذاتيًا ، ولم ينقصهم سوى بعض الكماليات الترفيهية التي لا يطلبها سوى الأثرياء(٨٩) . مثل التماثيل البرونزية وقطع التحف والأواني الفضية المشغولة والزجاج المصري ، والأواني النبطية والفارسية ، والفخار الأريتيني الإيطالي الفاخر ، والأواني المزججة من الأناضول وجنوب روسيا ، وبعض المشغولات من الهند . ولقد دهشنا من وجود هذه التماثيل السكندرية حتى وإن كانوا لا يعبدونها مثل ابروس الطفل الذي عثر عليه في حفائر جنوب الجزيرة وفي الفاو أيضًا . كما يشهد على ازدهار اقتصاد هذه الدويلات العربية أنها عرفت سك النقود منذ وقت مبكر مقلدة الدراخما الأثينية التي تحمل رسم طائر البومة رغم أنه رمز السوء في الشرق ، بينما هو رمز الحكمة والمعرفة في الغرب . وإن دراسة كميات النقود وأنواعها في جنوب الجزيرة تحتاج إلى دراسة خاصة ومقال مستقل(٩٠) .

وقبل أن نترك الحديث عن دويلات جنوب الجزيرة يطرح سؤال نفسه وهو : ما أسباب تدهور وسقوط دول الجنوب إذا كانت بهذا الثراء ، ولقد طرح على الساحة إجابتان . الإجابة الأولى ما ذكره مونتجمري ، وهو أن تدهور اقتصاد هذه الدويلات تبعه تدهور سياسي وقلاقل اجتماعية ، وإن السبب في تدهور اقتصادها دخول السفن البطلمية المصرية ، والسفن الرومانية كسفن منافسة للسفن العربية في نقل البضائع والسلع الشرقية مع الهند ، وتوقف طريق القوافل البري بعد أن حول الرومان التجارة الشرقية إلى الموانئ المصرية على البحر الأحمر ، غير أنه ثبت أن العرب استمروا في الثراء والازدهار حتى بعد سيطرة الرومان على

البحر الأحمر، لكنهم بالطبع فقدوا عامل الاحتكار وفشا سر الأسرار البحرية بعد اكتشاف البحارة السكندريين لموعد هبوب الرياح الموسمية وتوظيفها في الملاحة بين الشرق الأقصى والسواحل المصرية .

أما الرد الآخر فيعرضه جوس قان بيك ، وفيه شيء من التحامل على المسيحية وهذا الرأي في الحقيقة متأثر بفكر المؤرخ الفرنسي جيبون ، بل ويقلده في جعل انتصار المسيحية على الوثنية هي الشماعة التي تعلق عليها الفشل في الحفاظ على قوة الدفع الحضارية ، في العالم القديم ، إذ يرى قان بيك أن الطلب على البخور توقف بعد هجر المعابد الوثنية وتوقفها عن العمل ، وتحريم الكنيسة لعادة حرق الموتى وسط أكوام البخور والطيب وخشب الصندل والمر ، ويستشهد على ذلك بنص من بليني الأكبر ذكر فيه أنه عندما ماتت زوجة الإمبراطور نيرون وهي بوبايا سابينا Popaea Sabina أمر بحرقها وسط كومة من الطيب والبخور قدرت بإنتاج عام كامل للبخور والمر الذي تنتجه بلاد العرب⁽٩١⁾ . غير أن هذا الرأي غير صحيح ، لأن المعابد الوثنية لم تغلق أبوابها إلا في عصر ثيودوسيوس الكبير عام ٣٩٥م أي في أواخر القرن الرابع الميلادي ، وبأمر رسمي ، كما أن الكنائس استمرت وتستمر في استخدام البخور في الشعائر ومن ثم فكلا الرأيين لا يمثل كل الحقيقة .

إن تدهور وسقوط الدولة الحميرية آخر دويلات الجنوب العربي جاء نتيجة لمرحلة طويلة من الإرهاق الحضاري ، والتدهور الاقتصادي ، وفقدان روح التحدي والدفع الحضاري لدى شعوب الجنوب العربي ، فتدهور الطلب على اللؤلؤ والبخور كان يمكن أن يعوض بتحويله إلى تجارة الذهب والمرمر وصادرات أفريقيا والرقيق التي كان الطلب يزداد عليها ، إنما تدهور العناية بشبكة الري وإهمال ترميم سد مأرب العظيم ، جعل الصحراء تزحف على

المناطق المزروعة، وبدأت المياه تندر، فأدى ذلك إلى تزايد الفقر، وهجرة السكان إلى الشمال. ولعل من الأسباب التي أسقطت هذه الدويلات هو طمع سبأ الأفريقية في جنوب الجزيرة وهو ما وضحته في بحث مستقل. كما أن علماء المناخ يذكرون أن تحولاً في المناخ قد حدث خلال القرون الأولى بعد الميلاد، أدى إلى قلة الرطوبة وازدياد الجفاف، فلم يعد جنوب الجزيرة ينتج البخور والمر حتى أن أشجار اللبان كادت أن تصبح نادرة وتراثاً أثريًا من الماضي، ومن ثم أدى ذلك إلى الهجرة إلى الشمال حينًا وإلى أفريقيا حينًا آخر(٩٢)، وكانت طاقة الرحمة Coup d'grace، هو حدوث سيل العرم الذي أتى على الأخضر واليابس، ذلك في القرن الخامس الميلادي، وكان هذا نهاية الجنوب، وبداية نهضة الحجاز. كما يرى آخرون أن الثقافة العربية الجنوبية تدهورت مع تدهور ديانة الجنوب الوثنية، التي لم تصمد أمام الديانات السماوية القادمة من الشمال مثل اليهودية والمسيحية اللتين دخلتا في صراع دموي على الأرض العربية فبددتا روح السلام التي كانت سائدة في عصور الازدهار التجاري، وعرف جنوب الجزيرة المحارق والمذابح للمخالفين في العقيدة كما ذكرنا في تحليل حادثة الأخدود الشهيرة(٩٣). ومن ثم تدهورت اللغة العربية الجنوبية لجمودها وعزلتها ولم تصمد في اللغة الفنية العربية الشمالية التي أوجدت لها أبجدية أيسر وأسهل منذ القرن الرابع الميلادي.

لقد كانت أسعد عصور الشمال هي العصور التي شهدت مغيب شمس القوة عن الجنوب، فقد ازدهرت مدن الحجاز بفضل المهاجرين القادمين من الجنوب بكل تراث الماضي وخبراته، فتحولت مدنه إلى مراكز للنشاط التجاري، ولم تعد القوافل تبدأ من الجنوب بل من مكة أو الطائف، وأقيمت الوكالات التجارية العالمية فيها، ونشطت أسواقها الأدبية كسوق عكاظ وذي الرمة وغيرها، وازدهر

الشعر الجاهلي، وعرف الشمال البذخ الذي يتمثل في إقامة الحانات ولعب الميسر، وأماكن المتعة التي اشتهرت بها الطائف قبل الإسلام، ومن ثم فإن المائة والخمسين عامًا التي سبقت البعثة المحمدية هي بلا شك عصر نهضة الحجاز بعد أن اكتسحته ثقافة الشمال العربية الآرامية، فبددت ما تبقى من ثقافة الجنوب، ولعل النقش الجنوبي الذي أشرت إليه في بحث سابق والذي سجله وترجمه الهمداني بعد أن شاهده مكتوبًا على أطلال ملوك حمير الغابرين، ويعبر عن حيرة وقنوط وحسرة من جنوبي مجهول على ضياع حضارة بلاده، ويقول النقش: «لمن (اليوم) ملك ذمار؟ لحمير الأخيار؟ لمن (اليوم) ملك ذمار؟ للحبشة الأشرار؟ لمن (اليوم) ملك ذمار؟ لفارس الأحرار؟ لمن (اليوم) ملك ذمار؟ لقريش النجار؟»(٩٤)

إن دراسة الحجاز قبيل سقوط الدولة الحميرية وبعد سقوطها وحتى قيام الدعوة الإسلامية هو موضوع يطول الحديث فيه، ويستحق معالجته في مقال مستقل.

هوامش البحث

(١) انظر : لطفي عبد الوهاب يحيى : «المصادر الكلاسيكية لتاريخ الجزيرة العربية» [دراسات تاريخ الجزيرة العربية ـ الكتاب الأول، الجزء الأول بإشراف الأستاذ الدكتور عبد الرحمن الطيب الأنصاري]، مطبعة جامعة الرياض ١٩٧٩ .

(2) James Montgomery (With Prolegomenon by Gus Van Beek), Arabia and the Bible, Ktav publishing House, Inc. 1969.

(٣) الجزيرة العربية قبل الإسلام (إشراف د. عبد الرحمن الأنصاري)، مطبعة جامعة الملك سعود ١٤٠٤هـ.

(4) J. Montgomery, op cit., px (by Van Beek).

(5) Ibid . pxi.

(6) Michael Grant: Ancient History, Home Study Books), Methuen & Co.Ltd London 1952, p 42.

(7) Montogmery, op cit p XIV

(8) Ibid. p. XV.

(9) Philologus, 86 (1931), p336. Werner Caskel, "Arabia", Chap. 48, part, 4 in ; Hellenism and the Rise of Rome (edited by Pierre Grimal), Weidenfeld and Nicolson, Universal History, London 1969, p 292 - 3 (note 124 = p 388).

(10) Ibid. p. 293 (note 125 = p 389):

عندما أنقذهما عطار . . . ود ومكره وبضائعهما بن وسط مصر»، ويقترح كاسكل أن عبارة «بن وسط مصر» ذات مدلول ديني وليست ذات مدلول جغرافي ، ولم يوضح بينما يرى فرتز هومل أن إقليم وسط مصر»، هو إقليم تجاري وهو الأرجح انظر : ديتلف ينلس، فرتر هومل، رودوكاناكيس : التاريخ العربي القديم، مكتبة النهضة المصرية بالقاهرة ١٩٥٨ (ترجمه واستكمله الدكتور فؤاد حسنين علي، وراجع الترجمة زكي محمد حسن» ص ٦٩ »هامش ١ ، وقارن

Werner Caskel , loc cit . p 389 (note 125)

(11) Ibid. p 293.

(12) W.W. Tarn: "Ptolemy II and Arabia", Journal of Egyptian Archaeology, vol. XV (1929)pp2-25, (especially pp 9-11)

(13) Altheim-Stiehl: Die Araber in der Alten Welt, I,Bertln 1963, pp 75 seq.

(14) S . trabo XI,IX, 2; XI, 2; XI, XIV, 15 (c5 15, 531).

(15) Caskell, loc cit, p 293.

وكان أول من لاحظ ذلك الأستاذة ج بيرين :

J.Pirenne: Palaeographie des Inscriptions Sud-Arabes... I, Vehr knkl. vlaamse Ac... Van Belgie, Kl. d. Letteren nr.26, Brussels (1956), pp 212 et seq (Caskel p 389 note 126).

(16) Caskel, loc cit p 293).

كـذلك انظـر ديتلف تلسـن : المرجع السـابق ص ٦٩٦٧ (أبي يـدع يسطع) ، مع ملاحظة أن المؤلفين يعتقدون أن سبب تقديم قـربان الشكر ليس بسبب النجاة من الحرب التي وقعـت بين البطالمة والسلوقيين» وإنما السبـب النجاة من هجـوم شنه بعض قبائل البدو من السبئيين والمخولائيين على الطريق التجاري .

(17) cf. Van Beek in his prolegomenon to Montgomery's Book p XXI

(١٨) حسن ظاظا : «المجتمع العربي القديم من خلال اللغة : (الجزيرة العربية قبل الإسلام) جامعة الملك سعود ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م، ص ١٧٨ .

(١٩) سيد أحمد النـاصري : العرب وأفـريقيا في عصور مـا قبل الإسـلام» طبعة جـامعة القاهرة ١٩٩٠ ، ص ٣٨ هامش ٩٨ .

(٢٠) عبـد الله حسـن مصري : «ما قبـل التـاريـخ في شرق المملكـة العـربية السعـودية وشمالها» ، الجزيرة العـربية قبل الإسـلام ، جامعة الملـك سعود ١٤٠٤/ ١٩٨٤ ، ص ١٧٨ .

Harold A. Mc Clure: The Arabian Peninsula and Pre-historic population, H.Field (editor), The Field Research Projects (Miami Coconut Grove, 1971; and in the same serie cf. Masry: A.H, "Pre-history in N orth-Eastern Arabia, 1974.

21. Mark Speece : "The Role of Eastern Arabia in the Gulf Trade of the third and Second Millennia," Pre-Islamic Arabia, King Saud University 1984, p 167-176. H. Kapel: "The Atlas of the Stone Age Cultures of Qatar (Denmark: Jutland Archaeological Society Publications, 1967.

(٢٢) ارجع إلى المحاضرة التي ألقيتها في الموسم الثقافي لكلية الشريعة والحضارة، جامعة الملـك عبد العـزيز بمكـة (أم القـرى حاليًا) عام ١٣٩٨م (١٩٧٧م) وعنـوانها : هيرودوت وجزيرة العرب .

(23) Brian Dowe: Southern Arabia, Cambridge 1971. Pl no XI

(24) Montgomery : op cit. P.XII, XIII, XXX (by Gus Beek) , and also p 175 - 180.

(٢٥) « وسمعت ملكة سبأ بخبر سليمان لمجد الرب، فـأتت لتمتحنه بمسائل، فأتت إلى

أورشليم بموكب عظيم جدًا بجمال حاملة أثياباً ، وذهباً كثيراً جداً ، وحجارة كريمة ، وأتت سليمان وكلمته بكل ما كان بقلبها سفر الملوك ـ الإصحاح العاشر ١ ـ ٢ . وفي الفقرة العاشرة من نفس السفر و الإصحاح تقول التوراة «وأعطت الملك مئة وعشرين وزنة ذهب ، وأطياباً كثيرة جدًا ، وحجارة كريمة لم يأت بعد مثل ذلك الطيب في الكثرة الذي أعطته ملكة سبأ للملك سليمان» . وفي الفقرة الرابعة عشر والخامسة عشر أيضا تقول التوراة : « وكان وزن الذهب الذي أتى به سليمان في سنة واحدة مئة وستا وستين وزنة ذهب (١٥) ماعدا الذي من عند التجار ، وتجارة التجار ، وجميع ملوك العرب وولاة الأرض»

(٢٦) الإصحاح التاسع فقرة (١) : «وسمعت ملكة سبأ بخبر سليمان ، فأتت لتمتحن سليمان بمسائل إلى أورشليم بموكب عظيم جدًا وجمال حاملة أطياباً وذهباً بكثرة ، وحجارة كريمة» فأتت إلى سليمان وكلمته عن كل ما في قلبها (٢) فأخبرها سليمان بكل كلامها ، ولم يخف سليمان أمراً إلا وأخبر ها به . وفي الفقرة التاسعة من الإصحاح نفسه تقول التوراة أيضا : «وأهدت الملكة مئة وعشر وزنة ذهب ، وأطياباً كثيرة جدًا ، وحجارة كريمة ، ولم يكن ذلك الطيب الذي أهدته ملكة سبأ . . (١٢) وأعطى الملك سليمان ملكة سبأ كل مشتهاها الذي طلبت ، فضلاً عما أتت به إلى الملك فانصرفت وذهبت إلى أرضها هي وعبيدها» .

(27) Montgomery (Van Beek's prolegomenon) p. XVIII

(٢٨) النمل (آية ٣٠) .

(٢٩) النمل آية ٣٢ .

(٣٠) النمل آية ٣٤ .

(٣١) النمل ٣٥ ـ ٣٦ .

(٣٢) النمل آية ٤٣ .

(33) Tarn loc cit , p 13

(34) Montgomery op cit. (Van Beek' prolegomenon) p XVIII(note no. 7) , pXXX.

(35) Ibid p XIX

(36) Ibid p XX.

(37) Richard le Baron Bowen Jr., "Archaeological Survey of Beihan," Archaeological Discoveries in South Arabia (Baltimore 1958), pp 3-34.

(38) An ARCHAEOLOGICAL JOURNEY TO YEMEN, 3 vols (Publication du Service des Antiquites d'Egypte, Cairo 1951 - 1952.

(٣٩) يحيى خليل نامي (١) نقوش خربة معين (منشورات المعهد الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة ١٩٥٢).

(٢) نقوش خربة براقش على ضوء مجموعة محمد توفيق، مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة (المجلد السادس عشر، الجزء الثاني) ديسمبر ١٩٥٤ .

(٣) نقوش عربية جنوبية - المجموعة الثانية - مجلة كلية الآداب - المجلد السادس عشر الجزء الثاني (ديسمبر ١٩٥٤) .

(٤) نقوش خربة براقش - المجموعة الثانية - مجلة كلية الآداب المجلد السابع عشر الجزء الأول مايو ١٩٥٥ .

(40) G.W, Van Beek, G,H. Cole, and A. Jamme, "An Archaeological Reconnaissance in Hadreamaut, South Arabia, -- A Preliminary Report" : Smithsonian Report for 1963 (Washington) pp 521 - 545.

(41) W.F. Albright, "The Chronology of Ancient South Arabia in the light of the first campaign of Excavation in Qataban", Bulletin of The American Schools of Oriental Research, 119 (1950), PP 5-15.

(42) r. Le Baron B oen Jr. & F.P. Albright, "Archaeological Discoveries in South Arabia, "(Baltimore 1958).

(43) G.Caton Thompson, "The Tombs and Moon Temple of Hureidha (Hadramaut)," in Reports of the Research Committee of the Society of Antiquaries of London, XIII (Oxford, 1944).

(44) PUBLICATIONS OF THE AMERICAN FOUNDATIQN FOR THE STUDY OF MAN.

(45) Albert Jamme: Sabaean Inscriptions from Mahram Bilqis (Marib), Baltimore 1965.

(46) R.L. Cleveland , "The 1960 American Archaeological Expedition to Dhofar, ",Bulletin of The American Schools of Oriental Research, 159, (1960) pp 14 - 26; Preliminary Report on Archaeological Soundings at Sohar (Oman), "Ibid, 153 (1959) pp 11 - 18 ; Ancient South Arabian Necropolis (Baltimore 1965).

(47) G.W. Van Beek, " Hajar Bin Humeil (Baltimore 1969).

(48) J. Ryckmans, L'Institution monarchique en Arabie meridionale avant l'Islam (Ma' in et Sba), in Bibliotheque du Museon, 28 (Louvain 1951)

(49) Berta Segall, "The Lion Riders from Timna," The Archaeological Discoveries in South Arabia (1958).

(50) M.E. Salmon, "A Survey of the Composition and Fabrication of Bronze

Artifacts from Hajar Bin Humeid, " Hajar bin Humeid , pp 373 to p. 386.

(51) Brian Dowe, op cit (p 10).

(52) W.L. Reed and F.V. Winnett, "Report on the Arabian Expedition of 1962, " Bulletin of the American Schools of Oriental Research 168 (1962) pp9 - 10; "Report on the Archaeological Expedition to Hail in Northern Saudi Arabia (1967), "ibid, 188 (1967, pp 2-3 ; Ancient Records from North Arabia (Toronto).

(53) P.J. Parr, G.L Harding and J.E. Dayton, "Preliminary Survey in N.W Arabia , Bulletin of The Institute of Archaeology (London) No. 58 - 9 (1970), pp 219 - 241.

(54) E. Anati: "Rock Art in Central Arabia, IV Volumes, (Louvain, Bibliotheque du Museon 1968).

(55) J.P. Mandaville, "thaj: A. Pre-Islamic Site in North - eastern Arabia, "Ibid, 172 (1963), pp 9-20.

(٥٦) عبد الرحمن الطيب الأنصاري: قرية الفاو: صورة للحضارة العربية قبل الإسلام في المملكة العربية السعودية، جامعة الرياض ١٣٧٧ ـ ١٤٠٢هـ.

(57) P.J. Parr, J. Zarins et al.,"Preliminary Survey Report : Northern Province , ATIAL, 2 (1978); also cf. P. Parr: The present state of Archaeological Research in the Arabian Peninsula: Achievements of the Past, and Problems for the Future: Studies in The History of Arabia, II, Pre-Islamic Arabiax, King Saud University Press, Riyadh 1984. pp 43 - 54.

(58) E. Markay, L.Harding and F.Petrie, "Bahrain and Hamamieh, British School of Archaeology in Egypt XLIII (1929).

(59) B. Cornwall . "Tumuli of Bahrain, Asia and the American, vol. XLIII, No.4 (Connecticut 1943) pp 230 - 234; P.V. Glob, "Temple Ved Barbar " , Kuml. (1954). " en Med de hundred Tusinde Gravhoje, op cit. 92 - 105;" Bahrain Oldtidshovestad" , op dcit p 164 - 169.

(٦٠) دكتور عبد الحميد زايد: الشرق الخالد: مقدمة في تاريخ وحضارة الشرق الأدنى من أقدم العصور حتى عام ٣٢٣ ق.م ، دار النهضة العربية بالقاهرة، ص ١٢٩ وما بعدها.

(61) H. Kapel: "The Atlas of the Stone Age; Cultures of Qatar (Denmark: Jutland Archaelolgical society Publications, 1967).

(62) p. Mortensen, "Om Barbartenplets Datiering, Kuml (1970), 385 - 398.

(63, E. C. During - Caspers: A Dilmunite Steal Cutters Misfortune", Antiquity LI, No. 201 (1977), 54 - 55.

(64) M.R. Mughal: The Dilmun Burial Complex at Sar, The 1980 - 1982 Excavations in Bahrain (Bahrain 1083).

(65) Ibrahim, M.M: Excavations of Arab Expedition at Sar el Jisr Bahrain (1982).

وكذلك انظر مقالة : أول بعثة عربية مشتركة في البحرين ، دراسات تاريخ الجزيرة العربية المجلد الثاني : الجزيرة العربية قبل الإسلام : جامعة الملك سعود ـ الرياض ١٤٠٤ هـ ـ ص ٢٥ ـ ٣٤ . (واللوحات من ص ٢٥ إلى ص ٧٠)

(٦٦) عبد الله حسن مصري : ما قبل التاريخ في شرق المملكة العربية السعودية وشمالها ، نفس المجلد . السابق ص ٧٦ ـ ٨٨ ، وكذلك انظر مقالة :

Pre-History in North Eastern Arabia. Field Research Projects (Miami Coconut Grove, 1974).

(67) Harold A. McClure , " The Arabian Peninsula and Pre-historic Populations". H. Field (Editor), Field Research Projects (Miami Coconut Grove, 1974).

(67) Harold A. McClure , "The Arabian Peninsula and Pre-historic Populations", H. Field (Editor), Field Research Projects (Miami coconut Grove, 1071).

(٦٨) انظرهامش ٦١ .

(69) Gus Van Beek , Ibid. p . XXI.

(70) cf. W.F Al-bright, "The Chronology of Ancient South Arabia in the light of the first Campaign of Excavations in Qataban", Bulletin of the American Schools of Oriental Research, 119 (1950), pp 5 - 15; "The Chronology of Sabaean of Minaean Kings of Arabia, Ibid, 129 (1953) PP20-24; "A Note on Early" Sabaean Chronology , "Ibid 143 (1956), pp 9 ff. Albert Jamme: op cit (the Bibliography cited there; Ryckmans, op cit.

J. Tkastsch, "Saba", Encyclopedia of Islam (London) 1934, pp 12-15

(71) F.V.Winnet , " The Place of the Mineans in the History of Pre-Islamic Arabia" , Bulletin of the American Schools of Oriental Research, &3 (1939), pp 3-9

(72). Gus van Beek, loc cit pXXIF.

(73). cf Berta Segall: loc cit (note no. 49).

(٧٤) ديتلف نيلسون وآخرون : المرجع السابق : ص ٢٦٠ ـ ٢٧٣ ، خاصة ص ٢٧٣ (استكمال فؤاد حسنين علي) .

(٧٥) لم يظهر بعد المجلد الذي سوف يتضمن نشر باقي المكتشفات خاصة التماثيل ولكن حسب ما ورد في الجزء الأول الصادر عام ١٩٨٤ ، هناك نية على متابعة نشر هذه

المكتشفات، كما تعرفنا على بعضها من خلال بعض الصور، وأثناء المشاركة في أحد مواسم التنقيبات مع الأستاذ الدكتور عبد الرحمن الأنصاري.

(76) Gus Van Beek: loc cit . PXXII.
(77) R. Le Baron Bowen Jr.: "Irrigation in Ancient Qataban (Beihan), Archaeological Discoveries in South Arabia (1958), pp43 - 131
(78) Gus Van Beek; loc cit , pXXIII.
(79) F.P. Albright, "Excavations in Marib in Yemen" , Archaeological Discoveries in South Arabia, P223-5.
(80) Brian Dowe: op cit pp23f.
(81) Gus Van Beek loc cit p XXIII.

(٨٢) النحل آية ١٥ .

(81) Gus Van Beek, ibid. , p XXIV.
(84) K.H. Schmitt-Korte: Nabataean Pottery: A Typological and Chronological Framework, Pre-Islamic Arabia, King Saud University, 1984, pp &-40 (especially p 12).
(85) Van Beek ibid pxxV.
(86) ibid..

(٨٦) انظر عبد الرحمن الطيب الأنصاري. المرجع السابق ص ١٧ ـ ١٨ .

In universum gentes ditissimae, ut apud quas maximae opes Romanorum Parthorumque subsidant, Vendentibus quae e mari aut silvis capiunt, nihil invicem redimentibus: Plinius maior, Historia Naturalis, book VI.XXXII, 162.

(89) H.W. Schoff (translator), The Periplus of the Erythraean Sea (London 1912). paragraphs 24 - 28. Lionel Casson: The Periplus Maris Erythaei, Text with introduction, Translation and Commentary, Princeton University Press, 1989, chapters 24-29= pp63-67.

كذلك انظر ترجمة هذه الفصول في سؤال الأستاذ نقولا زيادة: «دليل البحر الأثري وتجارة الجزيرة العربية، الجزيرة العربية» قبل الإسلام، ص ٢٥٩ ــ ٢٧٧ حيث ترجم وعلق على الفصل ١٩ ـ ٣٦ والذي يعنينا هو الفصل ٢٤ ـ ٢٩ .. *also cf*

(90) Brian Dowe, op cit (Coins). ديتلف نيلسون وآخرون، المرجع السابق، ص ٩٨

(91) Van Beek, Ibid, pXXVI - pXXXVI; Plinius maior : Historia Naturalis, XII, XLI, 83: Beatam illam fecit hominum etiam in morte luxuria quae dis intellexerant genita inurentium defunctis. periti rerum adservant non ferre tantum annuo fetu quantum Nero princeps novissimo Poppaeae suae die concremaverit.aestimentur postea toto orbe singulis annis tot funera, acervatimque congesta honori cadverum quae dis per singulas micas dantur!

«ومما جعلها ذات حظ سعيد (يقصد بلاد العرب السعيدة)، حب الناس للرفاهية

حتى عند الموت (وذلك) بحرق جثمان الميت مع مواد باهظة (الثمن) كانوا يدركون أن خلقت أصّلا من أجل الآلهة . . . وتقدر المصادر العليمة أن بلاد العرب لا تنتج في عام كامل ذلك الكم الهائل من البخور الذي أحرقه الإمبراطور نيرون في يوم واحد مع جثمان حبيبته بوبايا ، ثم يحسبون بعد ذلك أرقام الجنازات التي تقام في العالم كله كل عام وكميات هذه المواد التي تجمع وتكوم (لتحرق) مع الجثمان والتي كانت تقدم للآلهة في الأصل في شكل ذرة واحدة!

(٩٢) انظر سيد أحمد الناصري المرجع السابق، ص ٣٥ ـ ٣٦ .

(٩٣) المرجع نفسه ص ٤٥ ـ ٤٦ .

(٩٤) نفس المرجع ص ٤٧ .

كان فيها المؤرخون أسرى لنصوص الإلياذة. حيث فسروا المكتشفات الأثرية في ضوء أبياتها على نحو ما فعل شليمان.

وكذلك فإن هؤلاء المستشرقين قلما يرجعون إلى القرآن الكريم الذي هو أدق المصادر وأكثرها معرفة بأحوال العرب في جاهليتهم الأولى والثانية، ناهيك عن أنه مصدر رباني لم يتعرض لأقلام البشر، وصدق الله العظيم في قوله تعالى: «إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون . .»

وكذلك فإن هؤلاء المستشرقين قلما يرجعون إلى كتب التراث العربي، أو إلى كنوز الشعر الجاهلي، ليستخرجوا منها معلومات تساعدهم على استكشاف تاريخ العرب في الجاهلية، ويفضلون عليها نصوص المصادر الإغريقية والرومانية(١) والتي رغم اعترافنا بأهميتها، لكنها هي الأخرى كما ثبت من الدراسات الحديثة لم تفهم تراث الشرق الذي كان في نظرها غريبًا وأسطوريًا. وهذا ما يتضح من كتابات هيرودوت عن جزيرة العرب؛ أو كتبت لأهداف سياسية كما هو الحال في النصوص الرومانية؛ كما أن عقدة الغرب وإحساسه بالاستعلاء والتعالي على شعوب الشرق، وجهله بها، جعلته يتحدث عن جزيرة العرب من وجهة نظره؛ ومن ثم يجب ألا نأخذها أخذ الإيمان الكامل بصحتها؛ وبناء على ذلك لو قدر لنا أن نضع منهجًا عربيًا لدراسة تاريخ العرب قبل الإسلام لأعدنا ترتيب المصادر التي يجب أن يكون في مقدمتها القرآن الكريم، والحديث الشريف يليهما النقوش العربية القديمة و مكتشفات الآثار، ثم يلي ذلك التوراة الحالية ونصوص الكتاب الإغريق والرومان. ولأثبت للقارئ الكريم قولي هذا، فسوف أوضح أمثلة للتجاوزات والأخطاء التي

وردت في كتاب مونتجمري Montgomery عن جزيرة العرب والتوراةArabia and the Bibleوالذي كان في الأصل عبارة عن مجموعة من المقالات التي ألقيت عام ١٩٣٠ ، ثم أصدرها في كتاب عام ١٩٣٣ ، ثم أعيد نشر الكتاب مرة أخرى عام ١٩٦٩ (٢) بعد أن كتب له الأستاذ جوس فان بيك Gus Van Beekمقدمة طويلة حاول فيها برفق تصحيح أخطائه وفض الاشتباك بين تاريخ العرب القديم ــ كما كتبه المستشرقون الأوربيون واليهود في ضوء التوراة ــ وبين الحقائق الجديدة، التي كشفت عنها أعمال التنقيب والمسح الأثري التي تمت بعد الحرب العالمية الثانية، غير أن الأستاذ بيك نفسه لم يستطع فض هذا الاشتباك تمامًا للأسباب التي ذكرتها آنفا، بالإضافة إلى نتائج المزيد من أعمال المسح والتنقيب التي تمت بعد عام ١٩٦٩ خاصة تلك التي تمت في المملكة العربية السعودية في الآونة الأخيرة، وخاصة في موقع الفاو، والتي ننتظر بفارغ الصبر نشر نتائجها نشرًا علميًا يروى عطشنا، وبعد نشر أعمال الندوة العالمية الثانية (٣) التي خصصت لمصادر تاريخ الجزيرة العربية قبل الإسلام، والتي شارك فيها عدد كبير من المتخصصين جاءوا من الشرق والغرب ليدلي كل بدلوه. وأخيرًا وليس آخرا نقول إن العقل العربي يجب أن يستيقظ من سباته ويقول كلمته ليحرر تاريخ أشرف بقعة في بلاده من احتكار مفسري التوراة، ومن هيمنة العقل الأوربي الذي يجب ألا ننظر إليه بمثل هذه القداسة لأنه أيضا يخطئ ويسيء الفهم، وعلى حد قول المثل العربي «أهل مكة أدرى بشعابها . . »

لقد مرَّ الآن ما يقرب من ستين عامًا منذ أن أصدر جيمس مونتجمري كتابه سالف الذكر، والذي درس فيه الجزيرة العربية وعلاقتها ببني إسرائيل في فلسطين، من الجوانب العرقية والثقافية والاقتصادية؛ واعتمد في دراسته على